

# مشكلة الحرية في رواية «الطاعون»

بقلم سيد صبحي

ولكن ما هي قصة الفئران هذه ؟ قال « ريو » لا أدري .. انه امر غريب .. ولكنه سيمر بلا ريب. غير ان الحالة لم تزد الا سوءا في الايام التالية .. فكان عدد هذه الحيوانات القارضة كل يوم في ازدياد ... وكذلك كان المحصول الذي يجمع منها كل صباح ...

وكانت الدهشة تعقد ألسنة مواطنينا حين يعثرون عليها في الاماكن الآهلة من المدينة، حتى ميدان السلاح ، والشوارع الكبرى ، والمنتزهات لم تسلم من تكديسها فيها ، وكاننا الارض التي أقيمت عليها منازلنا تبدو وقد أخرجت انقالتها ، وما كان ينخر في جوفها من سرطانات وقروح .. وهكذا أصابت الدهشة مدينتنا الصغيرة التي كان يسودها الهدوء .. وقد اضطرب أمرها في بضعة أيام كما لو كان هناك رجل في صحة جيدة ثم أخذ دمه الكثيف في القليان على حين غرة ...

وهنا يلوح لنا سؤال : ماذا نفعل حتى لا نصيب وقتنا ؟

ويكون الجواب : ان نمارسه بكل ما فيه من طول .. فقد صار كل الناس في البلية سواء .. واغلب الظن ان الوقت قد أزف ، فقد كان الامر يزداد سوءا واستفحالا لدى مرور كل لحظة من النهار .. وكان «ريو» يشعر بأن مخاوفه تزداد ، واعتقد انه « وباء » فالأوبئة من الامور الشائفة .. ولكن عندما ينزل الوباء على رؤوسنا يصعب علينا الاعتقاد بأنه وباء ، وقد أصيب العالم بالطاعون مرات تقارب عدد المرات التي نكب فيها بالحرب ، ومع ذلك فكلا الشارين .. الحرب والطاعون يباغتسان الناس على غير استعداد منهم للاقتناء !

فعندما تندلع نيران الحرب يقول الناس: انها لن تطول .. لان استمرارها ينم عن أشد القباء .. فالواقع أنه لا شيء أشد غباء من الحرب ، ولكن هذا لا يمنع من ان يطول أمدها .. اذ القباء من شسائه المثابرة ، ويمكن ان نلمس ذلك بوضوح اذا ما صرفنا النظر قليلا عن حصر تفكيرنا في أنفسنا .. ولكن مواطنينا كانوا في هذا الصدد كغيرهم من الناس .. كان تفكيرهم محصورا في أنفسهم ، وبعبارة أخرى كانوا عريقين في الانسانية ، أي لا يعتقدون في الأوبئة .. فالوباء أكبر من الانسان ، ولذا يميل الناس الى الاعتقاد بأنه ليس من امور الواقيع، وبيان المسألة لا تتعدى حلما مزعجا لا يلبث ان ينتهي .. « ولكن العلم لا ينتهي في كل الاحيان » ، ثم تتابع الاحلام المزعجة بعضها في اثر بعض حتى ينقض الناس أنفسهم فيها لانهم لم يتخذوا للامر حيلة ... وكانوا يظنون أنفسهم أحرارا ، ولكن لا وجود للأحرار ما دام للأوبئة وجود ..!

علينا ان نعمل على محاربة « الطاعون » ولا ينبغي ابدا ان نؤجل للغد .. ولا بد من ان نتجح .. فالنجاح ليس كبيرا على من ينشئد الحرية ، ويفرض الاستسلام للعدو .. اذن فلنتحد ونتكاتف ضد اولئك الذين « يفكرون فيك ليسينوا اليك » وعلينا ان نجعل الطاعون شغلنا الشاغل جميعا حتى نقضي عليه ، فنحن الان لسنا سوى أولئك الذين وضعتهم العدالة او الاحقاد البشرية وراء القضبان ولم يكن هناك مهرب من هذا الفراغ غير المحتمل الا في اعادة سير القطارات في خيالنا ... ومله أوقاتنا برنين متتابع لاجراس أبوانا .. تلك الاجراس التي كانت تصر على الصمت . ولكن اذا كان الناس يشعرون بالملء .. فان مفاهيمهم كان في بلدهم في أغلب الاحيان .. فقد كانوا يصطعدون دون توقف بذلك

« ان لحظات الزمان اشبه ما تكون بقطرات الماء التي تتساقط من بين اصابعه .. دون ان يفوى على امتلاكها او القبض عليها بجمع يديه ... » \*

في عرضنا لمشكلة الحرية في رواية « الطاعون » (1) عند الفيلسوف البير كامو .. يجدر بنا ان نذكر « سيزيف » الذي عذبته الالهة وهكمت عليه بأن يدفع امامه حجرا الى اعلى الجبل ، وكان كلما بلغ القمة انحدر الحجر الى اسفل ، ويعود فيرفع الحجر الى القمة ويستقسط الحجر .. هكذا الى غير نهاية . ان الالهة عذبت « سيزيف » لانه اخطأ ، والانسان الحر هو الذي يخطئ .. اما العبد فهو لا يخطئ لانه لا يختار ما يفعل ، وانما يفعل ما اختاره له سيده ..

والانسان الحر هو الذي يقاوم ، ويجاهد الالم والمرض .. هو الذي لا يعرف حدودا لحرية .. وهو الذي يصطدم دائما بالقيود التي وضعتها غيره من الاحرار او غيره من الالهة !

هذا هو « سيزيف » انه اسقى من العذاب ، واقوى من حكم الالهة .. فهو يعلم انه محكوم ، وهو يعلم ان هذا الحكم لا رجعة فيه، وان هذا العذاب مدى حياته ، ولكنه مع ذلك يرفع الحجر ، ويلاحقه اذا نزل وينحن عليه ، ويحرص الا يسقط من يديه ، وهو يرفعه .. انه يؤدي هذا العذاب كما لو كان واجبا مقدسا انه يقاوم المستحيل ، ويعلم انه يقاوم المستحيل ، ومع ذلك يستمر في مواجهة المستحيل دون مسا استسلام ، وهكذا نجد أنفسنا أيضا امام « الطاعون » نعانى نفس المشكلة .. مشكلة الحرية .. مشكلة الخلاص .. وكما حارت الافهام في مشكلة الحرية ، ولكن على الرغم من هذه الحيرة سوف نجد « البير كامو » قد قدم لنا عملا أدبيا ان دل على شيء فانما يدل على ان الانسان هو الوجود الوحيد الذي يشعر بأنه حر .. وهو الوجود الذي لا يكف عن تكذيب كل ما يفوق جريته !

\*\*\*

في صبيحة اليوم السادس عشر من ابريل خرج الدكتور برنار ريو من مكتبه وأصطدم بفار ميت على بسطة السلم، ومن غير ان يولي الامر أي اهتمام أزاح الفأر من طريقه وهبط ، ولكن ما ان وصل الى الشارع حتى تنبه الى ان هذا الفأر لا ينبغي ان يبقى في مكانه، فصاد على اعقابه ليلفت نظر البواب الى ذلك .. وكان لرد الفعل الذي احدثه ذلك على السيد « ميشيل » الهرم اثره في ان يجعل الدكتور « ريو » يشعر بما لهذا الاكتشاف من غرابة ، فلم يكن وجود هذا الفأر يبدو له اكثر من امر غريب - في حين كان البواب يعتبره أمرا فاضحا ..

والواقع ان موقف هذا الأخير كان حازما ، اذ انه لم تكن توجد فئران بالمنزل ، وعيننا حاول الدكتور ان يؤكد له ان هناك فأرا على البسطة، وأنه قد يكون ميتا .. لقد ظل البواب يؤمن ايمانا لا يتزعزع بأنه لا توجد فئران بالمنزل ... واذا وجد فأرا فلا بد ان يكون مجلوبا من الخارج .. وبالاختصار لا بد ان يكون في الامر مجال لدعابة سخيفة ..

\* تأملات وجودية - الدكتور زكريا ابراهيم - منشورات الاداب ( 1 ) وقد رجعنا الى النسخة المترجمة بالعربية التي ترجمتها الدكتورة كوثر عبد السلام بحيري - وراجعها الدكتور محمد القصاص وصدرت عن المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر .

في اعماقنا .. ولو كانت المسألة مسألة زلزال - اذن لحدثت هزة واحدة كبيرة ، وانتهى الامر ، ولراحوا بعد ذلك يحصون من ماتوا ، ومن ظلوا على قيد الحياة ، وبذلك تنتهي الكارثة .. أما ذلك المرض اللعين .. فحتى ارتكك الذين لم يصابوا به لا يتخون من نتائجه ومخاوفه !

« اذا فلنتنظر حتى يصير عدد الاطباء اكبر من عدد المرضى » ولكن هذا الانتظار يجعلنا نرى البؤس والالام التي يجربها الطاعون ، ونستسلم له .. فلا بد وان نكون اما مجانيين .. او عميانا .. او جبناء ..

وهنا يوضح لنا البير كامو مشكلة الحرية بمعناها الفلسفي العميق .. فنحن بآزاء انتقاد ذاتي يشهد بان الافق الذهني لهذا الاديب الفيلسوف قد تخطى مرحلة الواقع أعني مرحلة الحالة الراهنة وامتد الى حسالة اخرى صورها له الله القوي مما يدل على ان ذاته قد انفصلت عن واقعها مندفعة نحو « ما ينبغي ان يكون » وهذا هو السبب في ان لحظة التأمل العقلي والحكم على الذات لا بد وان تكون بمثابة انفصال جزئي عن الماضي ، وتحرر جزئي من الواقع ، ويصبح عندئذ التفكير والتأمل العقلي هو نقطة البداية في الحرية ..

وجاء « تارو » الذي بدأ العمل فجمع اول فرقة ثم اتبعها بفرقة اخرى كثيرة ، وكون منظمات لوقاية الافراد من الطاعون بعد ان اقتنع الناس بأنه ما دام المرض موجودا بيننا فانه ينبغي عمل كل ما يمكن عمله لمكافحةه ، واصبحت مسألة الطاعون مسألة تهم الناس جميعا .. ولكن أكفي ان يعلم « تارو » الطبيب .. الناس كيف يتخلصون من الطاعون؟ وهل من المستساغ ان يشتغل الناس بسماع تعاليم « تارو » كما يشتغل المدرس اذهان التلاميذ بان « اثنين واثنين تساوي اربعة » .. فقد يبدو ان هذا العمل جدير بالثناء ، ولكن هناك في التاريخ لحظات يعاقب فيها من يجرؤ على القول بان اثنين واثنين تساوي اربعة بالموت .. والمدرسي يعرف ذلك جيدا ، والسائلة ليست في ان تعرف ما هي الكفاية او ما هو العقاب الذي يستتبعه هذا التفكير .. وانما تنحصر المسألة في ان تعرف ما اذا كان « اثنان واثنان تساوي اربعة ام لا ؟ فمواطوننا الذين جازفوا في هذا الوقت بحياتهم كان عليهم ان يقرروا ما اذا كانوا في وقت الطاعون ام لا ؟ وما اذا كان من الواجب عليهم ان يكافحوه ام لا .. وهنا يبين لنا كامو : ان الحقيقة قد تنطس تحت نير الظلم ، ولكن الى حين ، فالناس يتختم عليهم ان يلاحظوا ويفكروا لكي يتبعوا الطاعون .. لانه لا يكشف عن نفسه الا بعلامات سلبية فاذا استسلم الافراد للطاعون فسوف يقبلون على الطرقات ليموتوا فيها اكواما حيث تمنع جثثهم ، وسوف تشاهد المدينة المحتضرة في الميادين العامة يتعلقون بالاحياء مدفوعين الى ذلك بمزيج من حقد مشروع وأمل ابله ..

ينبغي علينا اذن ... ان نعمل كل ما يمكن عمله حتى تكف عن ان نكون مصابين بالطاعون ، وانه بهذا .. بهذا فقط يمكننا ان نأمل في السلام . والمرء يحتاج لكثير من الارادة ، حتى لا يصاب بالسهو .. وأنه لامر شاق ان يصاب المرء بالطاعون ، ولكن أشق منه ان يستسلم المرء للاصابة به .. واذا ما استسلمت لهذه اللحظة فلم أعد اسأوي شيئا بالنسبة لهذا العالم ..

وهنا يبين لنا البير كامو :

ان الانسان برغم خضوعه للظروف غير الملائمة التي تعصف بوجوده .. بالرغم من ذلك الخضوع .. فهو رب افعاله ، وهو السيد المتحكّم في تصميماته .. فمن امتنع عن الاختيار فقد اختار الا يختار ، ومن ترك للمؤثرات الخارجية ان تختار له فقد اختار لنفسه الاستسلام .. فليس امامنا ما نخسره اللهم الا ان نخسر كل شيء .. لذا دعنا نتجه قدما الى الامام .. هذا هو رهان جيلنا .. فاذا فشلنا فان من الافضل لنا ان نكون قد وقفنا في صف من اختاروا الحياة ، بدلا من الوقوف في صف من يدعرونها ..

سيد صبحي

القاهرة

الجدار الذي يفصل بين المصير الموبوء الذي فرض عليهم ، وبين وطنهم الذي ضاع منهم .. فغالبا الظن انهم هم الذين كانوا يعمرون هانمين على وجوههم في كل ساعات النهار في المدينة المظيرة يدعون في صمت - ذكر الاسماء التي عرفوها وحدهم ، ويتادون اصحبا بلادهم المنعشة .. لقد كانوا حينئذ يغنون نوارهم بتأويل علامات غير محسوسة، وارهافات محيرة .. كمرور الطير في سماء المدينة أو ندى الغروب ، او تلسك الاشعة القريبة التي تنسأها الشمس احيانا في الشوارع المقفرة .

وفي كل مساء كانت هناك أذرع تتلطف بفراعي « ريو » وكلام كثير لا فائدة منه ، ووعود ودموع غزيرة تدرف ، وفي كل مساء كان يتسبب رنين جرس سيارة الاسعاف في أزمنة لا طائل من ورائها . وفي نهاية تلك الاسابيع المزعجة ، وبعد كل هذه الاماسي التي كانت تفرغ فيهبسا المدينة سكانها لكي ينفوا ، ويدوروا في الشوارع .. فهم « ريو » انه ليس له ان يدافع عن نفسه في اتهامه بمدم الشفقة .. فالمرء يتعب من الشفقة عندما تصيح فير ذات معنى !

وكانما وقت التفكير قد حان ، والمصالحون الاحسرار لا يخشون ذلك .. أما الشريريون فلهم ان يرتعدوا فالعالم الان بمثابة خزانة هائلة للقتل ، ولسوف يضرب الطاعون القمح البشري حتى يفصل منه القش عن الحب ، وسيكون القش اكثر من الحب .. وعدد الذين يدعوهم اليه اكثر من عدد الناجين منه .. وقت التفكير قد حان .. ولا بد للخلاص فليس من الممكن ان تستمر هذه الحال .. فالله الذي اطل على الناس في هذه المدينة بوجه من الشفقة .. قد مل الانتظار وصدم في أمسه الخالد ، وأشاح عنهم بوجهه ، وما نحن اولاء بعد ان حرمتنا من النور الالهي نتخبط ولوقت طويل .. في دجاجير الطاعون !!

والشيء الغريب .. انه قد غصت كاتدرائية مدينتنا بالمؤمنين طوال هذا الاسبوع وانتشرت رائحة الخور واعتلى الاب « بانسو » منبر الكاتدرائية ثم قال بصوت قوي :

« اخوتي انظروا الى ملك الطاعون هذا .. انه جميل جمال الشيطان ، وله بريق كبريق الشر نفسه وقد وقف فوق أسطح منازلكم ، وأمسك بيده اليمنى العصا الحمراء ، ورفعها حتى مستوى الرأس في حين ان يده اليسرى تشير الى احد منازلكم ، وقد تكون أصبعه في هذه اللحظة تشير الى بابكم وعصاه تدق على خشب الباب .. وفي هذه اللحظة أيضا يدخل الطاعون بيتكم ، ويجلس في غرفتكم منتظرا اربابكم .. انه هناك ينتظر في صبر وأناة ، وهو واثق من نفسه وثوق هذا العالم من نظامه وهذه اليد التي يمددها اليكم .. اعلموا جيدا انه لا توجد في الارض ولا في العلوم البشرية النافهة قوة تستطيع ان تجعلكم بمنجاة منها - وهكذا سوف يضربكم الطاعون كما يضرب القمح على جرن الالم اللطخ بالدماء ثم يلقى بكم مع القش ».

ويتابع الاب بانلو بمزيد من الايضاح وصف تلك الصورة المؤثرة للوباء ، فصور قطعة الخشب الهائلة التي تلف وتدور فوق المدينة تخبط خبط عشواء .. ثم ترتفع نائبة ، وقد لطختها الدماء وتستمر تعشير الدم والالم البشري من اجل « بدر ينتهي بحصاد الحقيقة » ، ثم يصيح الاب « بانلو » بصوت اشد قوة : « أيها الاخوة ان رحمة الله تتجلى في كل شيء .. في الخير والشر ، القسوة والشفقة .. الطاعون والخلاص .. فهذا الوباء نفسه الذي يدمي قلوبكم هو الذي سيسمو بكم .. ويريك الطريق .. »

لا بد اذن من التصميم .. فالتصميم لا بد وان ينتهي دائما بالانتصار على كل شيء .. ولكن يبدو ان قلوب الناس جميعا قد تحجرت .. فقد أخذ الجميع يسرون ويعيشون بجانب الانسين ، وكأنه قد أصبح لغة الناس الطبيعية .. وكان الربيع قد كل بعدما بطل من ذات نفسه في صورة الاف الزهور المتألقة في كل مكان حول المدينة ! الربيع الان في الكرى ، وراح يتحطم ببطء تحت ضغط الطاعون والقيظ المزروع . المسألة اذن : تتطلب الكفاح والجهد .. لان آفة الطاعون متأصلة